المحاضرة الثالثة

تعريف الصهيونية وأهدافها

كانت فلسطين على مر العصور جزءا من سوريا أو ما يسمى ببلاد الشام، وسميت بسوريا الجنوبية ولم يفصلها عنها أي حاجز أو فاصل مهما كان، وإلى غاية الحرب العالمية الأولى ظلت جزءا من البلاد العربية التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، لكن موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وتواجد أهم الأماكن والمدن المقدسة لأصحاب الديانات السماوية الثلاث بها، جعلها محط أنظار واهتمامات الدول الاستعمارية وأخذ هذا الاهتمام أبعادا كبيرة خاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر، أبان حملة نابليون على مصر والشام، ثم في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، عندما هددت جيوش محمد علي الدولة العثمانية، ومع ظهور قناة السويس عام ١٨٦٩ وأهميتها، واحتلال بريطانيا لمصر، ازدادت أهمية فلسطين مما جعلها هدفا للأطماع البريطانية بحجة حماية القناة، وحماية طرق مواصلاتها إلى الهند، ولم ينس اليهود فلسطين يوما، فقد كانت في نظرهم أرض الميعاد، واستطاعوا الحصول على وعد بلفور في ٠٢ نوفمبر ١٩١٧ فكان هذا الوعد آخر حلقة من حلقات المخططات الاستعمارية لاحتلال فلسطين وتسليمها للصهاينة لإقامة الوطن القومي لهم عليها، حيث تحالفت بريطانيا والحركة الصهيونية لإرساء قواعد "الدولة اليهودية"التي أعلن عنها رسميا عام ١٩٤٨.

تعريف الصهيونية:

ترجع الحركة الصهيونية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي تستند حسبهم إلى أسانيد من التوراة فيها إشارة إلى عودة اليهود إلى وطنهم وإعادة بناء هيكلهم المنسوب إلى سليمان وحلم اليهود في الحقيقة هو "إسرائيل الكبرى" وهي الشعار الرئيسي لهم في مخطط التوسع، فقد ورد في بعض أسفار العهد القديم "في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر النيل إلى النهر الكبير بنهر الفرات" العهد القديم سفر التكوين أصحاح ١٥ فقرة ١٨. وأيضا: "وكل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلمت موسى، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم" العهد القديم، سفر يشوع، أصحاح ١ فقرة ٤٩٣. وأيضا: "وأعطي لك ولنسك من بعدى أرض غرسك كل أرض كنعان ملكا أبديا" العهد القديم، سفر التكوين أصحاح ١٧ فقرة ٨.

لقد تبنت الحركة الصهيونية الحجة الدينية في اختيارها لفلسطين وفي اختيارها لاسمها، فالصهيونية كمصطلح نسبة إلى صهيون وهو اسم علم يعني تحديدا اسم جبل أورابية غربي القدس، يحج إليه اليهود مرددين "رنموا للرب السكن في صهيون"، وعلى هذا الجبل ابتنى داود عليه السلام قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وتسمية صهيون ظهرت قبل بني إسرائيل أي زمن اليبوسين وهم أبناء عمومة الكنعانيين، الذين كانوا قد أقاموا على الجبل حصنا، لذا فاللفظة كنعانية وليست عبرية، وقد ورد ذكرها في التوراة "وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض وأخذ الملك

حصن المدينة حصن صهيون، وأقام داود في الحصن وسماه "مدينة داود" وصار لفظ صهيون بعد ذلك يرد في كتبهم الدينية، ويعني عاصمة المملكة التي تعني رمز المجد عند اليهود.

وأول من وظف الكلمة توظيفا سياسيا هو ناتان بيرنبويم النمساوي ليصبح معناها الحركة الهادفة إلى تجميع "الشعب اليهودي في أرض فلسطين"، ويعتقد اليهود أن المسيح المخلص يأتي آخر الزمان ليعود بشعبه إلى أرض الميعاد، ويحكم العالم من جبل صهيون وبهذا حول الصهاينة سعيهم لإقامة الوطن القومي على أرض فلسطين، من المعتقد الديني إلى برنامج سياسي، وكان غرضهم من اختيار مصطلح صهيون هو إثارة المشاعر الدينية والعنصرية بين يهود العالم ومحاولة كسب المسيحيين الغربيين إلى جانبهم لتجنيد كل اليهود، فاليهودية بالنسبة لهم ليست ديننا فحسب بل هي قومية تجمع كل يهود العالم، الذين يعيشون الشتات ويحتاجون رقعة من الأرض تتسع وتتسع حتى تصبح دولة كبرى.

ورغم أن العاطفة الدينية وربطها بالعودة إلى أرض فلسطين كانت مرفوضة من طرف الأحبار والحاخامات، لأنهم كانوا يؤمنون أنهم استحقوا تدمير دولتهم وشتاتهم في كل بقاع الأرض بسبب خطاياهم، وأن عليهم انتظار المسيح المخلص الخاص بهم "الماشيح" أو "المسيا" وعند ذلك فقط يجوز لهم العودة إلى فلسطين والاستقرار بها، إلا أن الصهيونية استطاعت التأثير على أصحاب هذا الفكر خاصة اليهود الشرقيين وتمكنت من كسبهم إلى جانبها مع مرور الوقت.

والصهيونية اصطلاحا يختلف معناها باختلاف معتقد الإنسان وتوجهه الفكري، فهي بالنسبة للصهاينة ومن يشاطرهم الرأي والفكر: "الحركة اليهودية الوطنية في العهد الجديد، وهذه الحركة تؤيد عودة الشعب اليهودي إلى صهيون إلى وطنه التاريخي "أرض إسرائيل" وإقامة "دولة يهودية" حرة ومستقلة وتجديد حياة الشعب اليهودي الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية."

لكنها بالنسبة للمسلم ما هي إلا "حركة عنصرية سياسية استعمارية أسبغت على اليهودية صفة القومية والدلالة الجنسية وزعمت أن الشعب اليهودي يكوّن عرقا نقيا، ونادت بحل ما أسمته المشكلة اليهودية فعارضت اندماج اليهود في أوطانهم الأصلية ودفعهم للهجرة إلى فلسطين، زاعمة أن لهم حقوق تاريخية ودينية، وتلاقت مطامع الصهيونية بأهداف الاستعمار في إقامة دولة يهودية في فلسطين عن طريق إرهاب وطرد شعبها العربي الأصيل"، فالمسلم في نظرته إلى هذه الحركة مشبع بالفكر الديني الذي يجعل من فلسطين بلدا مسلما، ومن الحركة الصهيونية حركة عدوة لكل ما هو إسلامي، بينما يصر اليهود على عدالة قضيتهم وعلى انتمائهم التاريخي والديني لفلسطين، وتجدر الإشارة أن كل مسلم يحيد عن معتقد كره الصهيونية فإنه مسلم عليل عليه بتجديد إيمانه، مع كثرة الاستغفار وإعلان التوبة.

والحركة الصهيونية في واقع الأمر هي حركة إيديولوجية استعمارية، تقدم نفسها على أنها تعبر عن رغبات وطموحات الشعب اليهودي في العصر الحديث، وفي مقدمة الرغبات العودة إلى "أرض إسرائيل" لكنها عمليا هي من الحركات

الاستعمارية وقريبة جدا من تلك الحركات التي ظهرت وانتشرت في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

واتسعت دلالات الصهيونية بتنوع مؤسساتها وأحزابها وهياكلها وجماعاتها التي ظهرت، وسعت بكل قوة لتأسيس الوطن القومي، فأصبحت لها معنى واسع يضم جميع المؤسسات والمنظمات الصهيونية والأحزاب والمؤسسات والهيئات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والأدبية والفنية، التي تهدف إلى دفع اليهود إلى الهجرة نحو فلسطين، بالتهديد أو الترغيب، وإقامة نظام خاص يقوم على أساس إيجاد روابط اجتماعية وثقافية ودينية خاصة لفئات "الشتات"، والقضاء على التناقضات القائمة بين اليهود والتي اكتسبوها بين المجتمعات التي كانوا يقيمون فيها وينتمون إليها، قبل التحاقهم بفلسطين، أما الصهيوني فهو كل شخص مؤمن بالفكرة ويدعوا إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، دون النظر إلى ديانته أو قوميته أو جنسيته.

والصهيونية الحديثة على المستوى الدولي بشر بها ودعا إليها وقاد أسلوب عملها، وأرسى الكثير من قواعدها تيودور هرتزل، ومع ظهوره سارت حركة البعث الوطني اليهودي على خطى وطريق جديد، طريق الصهيونية السياسية، إذ جعلها صهيونية عالمية، محددا أهدافها ووسائلها وأدواتها وفكرتها الرئيسية وهي العودة إلى صهيون، واكتسحت مبادئه كل يهود أوروبا، فأحيا في نفوسهم أحلامهم القومية، وأتم ما بدأه من كان قبله في الماضي البعيد أو الماضي القريب، على غرار جمعيات أحباء صهيون، التي نشأت في روسيا عام ١٨٨١، بعد صدور قوانين مايو التي فرضت عدة قيود على اليهود، وكان هدف الجمعيات محاربة اندماج اليهود في المجتمعات التي يتواجدون فيها والعودة إلى صهيون، فكانت بذلك صلة الوصل بين ما أطلق عليه طلائع الصهيونية في منتصف القرن التاسع عشر، وبداية الصهيونية السياسية مع ظهور تيودور هرتزل وانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧. وقد استغلت جمعيات أحباء صهيون انفجار العنف في روسيا ضد اليهود، وحدوث مجازر ضدهم مما اضطر الكثير منهم إلى النزوح عن روسيا القيصرية، بعد اغتيال القيصر، وكان من نتيجة هذه الأحداث تزايد القطيعة وتراجع سياسة الاندماج في المجتمع الروسي لليهود، حيث نشطت الجمعيات اليهودية الداعية إلى الهجرة والاستيطان في فلسطين، والحقيقة أن هذه الجمعيات ورغم أنها سبقت صهيونية هرتزل، إلا أن حلم اليهود في امتلاك فلسطين والسيطرة عليها قديم ويسبق هذه الجمعيات بزمن بعيد.

جذور العودة إلى "صهيون" إن أمل اليهود في العودة إلى فلسطين والسيطرة عليها قديم، وقد ولدت فكرة العودة بعد خراب "أرض إسرائيل" وهجرة اليهود منها، وطيلة سنوات الهجرة الطويلة كانت آمال اليهود وأحلامهم متعلقة بالعودة إلى الصهيون، وفي قلوبهم الشوق إلى أرض الأجداد، وأحيانا كانت تتشكل حركات يهودية دينية تثير حماس الجماهير اليهودية من أجل العودة إلى صهيون، كما نظمت سلسلة من الهجرات إما للحج أو للموت والدفن في أرض الميعاد، لكن خلال القرن ١٩ جرت أولى الخطوات الجدية لتجسيد فكرة العودة إلى أرض الميعاد مع تيودور

هرتزل، هذه الخطوات كانت مسبوقة بدعوات بعيدة المدى، حاول أصحابها من خلالها العودة إلى فلسطين على أساس أنها أرض الأجداد، وأرضهم المباركة ومن بين هذه الدعوات على سبيل المثال لا الحصر:

* حركة المكابين أو ما يعرف أيضا بالثورة المكابية ١٦٧ ق.م، فبعد تشتت الدولة الإغريقية ظهرت منها عدة جماعات من بينهم "السلوقيون" وهم من بين الأقسام التي انقسمت من الدولة الإغريقية واستطاع هؤلاء أن يقيموا لهم سلطانا وأصبحوا حكاما لبلاد الشام ونشروا الثقافة والحضارة الإغريقية واضطهدوا اليهود وأجبروهم على عبادة "زيوس" الآلهة الإغريقية، وأبعدوهم عن عبادة "يهوه" أو "يَهْوَه" الذي يعني الله في اللغة العبرانية عند اليهود، وأمام هذا الوضع انصرف قسم من اليهود لعبادة "زيوس" وتركوا دينهم، وبدأت الطقوس الإغريقية تنتشر بين اليهود أكثر فأكثر حتى انقسموا إلى قسمين: قسم اتبعوا الإغريق وسموا "اليهود الإغريقيون" وقسم تمسكوا بدينهم وهربوا به من اضطهاد السلوقيين وسموا "المكابيون" نسبة إلى القبيلة الرئيسية التي ظلت على دين اليهود، وهي القبيلة المكابية التي قاومت الإغريق وتمسكت بدينها وطقوسها وقادهم يهوذا المكابي (جوداسمكابيوس) الذي حمل لواء الحرب وقاد ثورة اليهود وسميت ثورته بالثورة المكابية ١٦٧ ق.م اعتراضا على ما قام به حكام السلوقين من تدخل في شؤون اليهود ومنعهم عن عبادة ربهم، واستطاعت الثورة المكابية خلال ثلاث سنوات من تطهير الهيكل عام ١٦٥ ق.م. وقد ساعدت الثورة المكابية في النجاح وترسيخ أقدامها، وسيطر المكابيون على الحكم في القدس حتى زوال الدولة السلوقية عام ٦٣ ق.م على يد الرومان، وحملت هذه الثورة بذور السيطرة على القدس وإقامة ملك اليهود فيها.

* حركة باركوخبا: وهو زعيم التمرد ضد الرومان (١٣٢-١٣٥) وباركوخبا أو باركوشبا هذا لا يعرف أصله واسمه الحقيقي سيمون وباركوخبا هو لقبه ويعني ابن النجم، واستطاع إجبار أكبر حاخامات ذلك العصر وهو "أكيبا بن يوسف" على الادعاء أنه المسيح المنتظر ومن ثم اجتمع تحت لوائه مائتا ألف يهودي واستطاع بهم احتلال مراكز رومانية، والقضاء على حاميات كثيرة أخرى، وظف باركوخبا عقيدة المسيح المنتظر والعودة إلى فلسطين وإقامة الدولة اليهودية فيها.

* شتباي تسفي (١٦٢٦-١٦٧٦) ولد بأزمير ادعى أنه المسيح المنتظر، تلقى في بداية حياته تعليما دينيا تقليديا أساسه التوراة والتلمود، وأقبل على التصوف اليهودي "القبالاه" وتعتبر حركة شتباي تسفي أحد أهم الحركات المشيحانية على الإطلاق والتي أثرت على رجال الدين والحاخامات خاصة، وانتشر أتباعه في كل مكان وانتشر معهم فكر شتباي تسفي الذي هاجم اليهودية الحاخامية التقليدية بشدة حتى ذهب بعض المفكرين إلى أنه يعتبر أول من مهد الطريق للصهيونية التي ترفض القيود الدينية وتأبى الأوامر والنواهي، وكان طموح شتباي العمل للعودة الفورية إلى فلسطين ورفض انتظار المسيح وبذلك ثار على الموقف التقليدي، وكان تيودور هرتزل معجبا للغاية بشتباي تسفي حتى فكر في كتابة أوبرا عنه لتمثل في الدولة الصهيونية بعد إنشائها، لكن هذا الرجل ختم حياته بادعاء الإسلام وسمى

نفسه محمد أفندي واستمر في الدعوة سرا بأنه المسيح المنتظر بين أتباعه "يهود الدونمة" في تركيا، الذين اعتنقوا الإسلام ظاهريا بينما احتفظوا بعقيدتهم سرا، ونفي شتباي إلى مدينة دلسينكو في إسبانيا حيث توفي عام ١٦٧٦. لقد كان هذا الرجل يتصور أنه سيحكم العالم كله من فلسطين وكان يوقع بعبارة "الابن الوحيد الأول ليهوه" وهناك حركات ودعاوى أخرى قديمة تعذر ذكرها جميعا هنا.